

2015

هل نحن معولمون

Saadi Dannawi

Jinan University, saadidannawi@gmail.com

Follow this and additional works at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/aljinar>



Part of the [Critical and Cultural Studies Commons](#)

Recommended Citation

Dannawi, Saadi (2015) "هل نحن معولمون," *Al Jinan الجنان*: Vol. 7 , Article 12.

Available at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/aljinar/vol7/iss1/12>

This Article is brought to you for free and open access by Arab Journals Platform. It has been accepted for inclusion in Al Jinan الجنان by an authorized editor. The journal is hosted on [Digital Commons](#), an Elsevier platform. For more information, please contact rakan@aarj.edu.jo, marah@aarj.edu.jo, u.murad@aarj.edu.jo.

أ. د. سعدي الضناوي

أستاذ اللغة العربية – جامعة الجنان

هل نحن معولمون؟

DOI: 10.33986/0522-000-007-014

إشارة

أقدم هذا البحث للقراء، لا أدعي فيه الاختراع ولا الإبداع، إنما أنا أنتقي، وأنظّم، وأحاول أن أحسن العرض لأقرب المفاهيم.

إنّ ما كُتب عن العولمة كثير، من هذا الكثير أقيمت الاختيار، لأن الأبحاث غالباً ما تخلط الظواهر والمبادئ والنتائج. فإذا ما تكاثرت المؤلفات وتزايدت البحوث لاحقة بركب التطور العلمي، ولم يكن في ذهن القارئ وضوح للمفاهيم، وللأصول والوجوه التي تتحرك وفقها العولمة، تظل الصورة في ذهنه ضبابية.

أذكر بأنه انتقاء لا إحاطة، فالإحاطة لها مجلداتها.

نتناول في هذا البحث

أولاً: ماهية العولمة

ثانياً: وجوه العولمة

• الوجه الاقتصادي

• الوجه السياسي

• الوجه الاجتماعي

• الوجه التكنولوجي

• الوجه الثقافي

الخاتمة: هل نحن معولمون؟

العولمة Globalisation

في عام ١٩٩١ ، كتبتُ ، في خاتمة بحث عن المجتمعات الكلية :

« إنَّ التفكير بالبشر أينما كانوا، وبالإنسان، أياً كانت هويته ، وبالمجتمع الانساني الكلي ، متخلصاً من حدود البيئة وحدود الزمان والمكان، لم يعد غريباً في أيامنا ... فمع التقدم العلمي ، وازدهار وسائل الاتصال والانتقال، ومع تكثف التقارب بين البشر، وازدياد عدد المؤسسات العالمية التي ترعى الانسان المطلق ، وتعاضل حجمها ، راحت المواطنة العالمية cosmopolitisme تقوى وتشتد، ويقوى معها إحساس كل إنسان، أينما كان، بأن حدثاً ما، في أقصى المعمورة ، يتردد صده في حياته هو ، وأن تخلف بلد ما ، إذا استمر ، يكون وصمة في جبين الانسانية جمعاء. لهذا تتصاعد الآن الدعوات الى التعايش السلمي بين الدول ، وإلى ترك كل مجتمع يختار نمط الحياة ونوع الحكم في داخله، على أن يكون عضواً فاعلاً في المجتمع الدولي، دون أن يكون لهذا المجتمع تدخل في الشؤون الداخلية للآخرين، إلا لتقديم مساعدة اقتصادية أو علمية له، تساعد على اللحاق بركب التطور.

ولعل أبرز مظهر لهذه العالمية هو الاعتراف بالإنسان، كإنسان، أياً كان لونه أو بلده، أودينه، أو عرقه، وبحقوقه في الحرية والعدالة والمساواة الاجتماعية.»

هذه الاندفاعية نحو العالمية في ذلك الوقت لم تكن مجلوبة ولا مفروضة، انما كانت تعبيراً عفويّاً عن أمل ورجاء، داعياً أفكار جيل معين أمل بأن يعم الإحساس بالطمأنينة، ورجا أن ترتقي الإنسانية الى درجة الأخوة الحقيقية في العالم أجمع.

تلك الفترة كانت مفصلية في تاريخ العلاقات الإنسانية، أمور كانت تتحضر ومولود العولمة، الذي قُدِّر له أن يخنق الأمل ويقطع الرجا، كان في المخاض لم يأخذ بعد لا اسماً ولا جسماً.

أولاً: ماهية العولمة

إننا نتجاوز تعبير «التعريف» ، لأن كلمة «العولمة» رجاجة المضمون، زلقة المفهوم، نجدكل من تصدى لتعريفها يستبق التعريف بوصف صعوبته ، منهم «موراي» : «اتخذ المفهوم قوة هائلة، على الرغم من أنه لم يحدّد دائماً بشكل جيد، أو يقوّم بشكل نقدي في الاستعمال الشعبي أو الأكاديمي ...»^(١) ويحاول «تايلور» فيجد أن العولمة مفهومٌ سلسٌ ومرنٌ جداً، هو في الواقع زبون

١ - جغرافية العولمة ص ١٠ (عام ٢٠١٢)

زلق جداً يصعب التعامل معه»^(١) ويجد دانييلز «أنه مصطلح متنازع عليه...»^(٢)

والسبب في رأينا، أن العولمة متشعبة الأصول، متعددة الوجوه، تصعب الإحاطة بها جميعها.

١- مرتكزات العولمة

أ- البدايات العنوية البريئة الداعية الى الحوار العالمي. هي تطلعات عند الناس والدول نحو التقارب والتعاون، وطي صفحات الحروب، رافق ذلك تكوّن المؤسسات الدولية الحديثة: هيئة الأمم المتحدة، مجلس الأمن، لجنة حقوق الإنسان ...

ومع التطور في التكنولوجيا، وانضباط الزمان/المكان مع وسائل الاتصال السريع، راجت طريقة «دافئة» في النظر الى العالم تجاوباً مع أصداء «القرية الكونية» لماكلوهان، والنظرة الكوزموبوليتانية: «أن تكون مواطناً عالمياً يعني أن تكون لديك نزعة ثقافية لا تقتصر على الاهتمام بالناحية المحلية المباشرة، بل تعترف بالانتماء والمشاركة والمسؤولية العالمية، مع النزعة في دمج هذه الاهتمامات الأوسع في ممارسات الحياة اليومية»^(٣)

ب- تطور وسائل الاتصال

هذا التطور غير الكثير في حياة الناس. في العام ١٩٨٩ جاء في التقرير السنوي لمؤسسة ماركل الأميركية المهمة بالوسائل: «إن تقارب الوسائط أحدث تغييرات في الاتصالات ... فمع توسيع إمكان إقامة خدمات جديدة عملت الوسائط على تغيير طرق حياتنا وعملنا، وتبديل مدرجاتنا و معتقداتنا ومؤسساتنا. ومن الضروري أن نفهم هذه التأثيرات بغرض تطوير المصادر الالكترونية من أجل مصلحة المجتمع»^(٤)

وكتب فرانك كيلش (عام ١٩٩٥) عن الانترنت: «ليست في الواقع شبكة اتصالات تجارية، كما أنها ليست حتى شبكة اتصالات واحدة بالمعنى الضيق، بل هي بالأحرى عدة شبكات اتصالات فردية وكومبيوترات حول العالم، مرتبطة معاً في كتلة لا شكل واضحاً لها بعد»^(٥)

ج- بدايات قصدية

ظهرت ميول إلى جعل العالم، بدوله المختلفة، وحدة تحت إدارة سائس واحد له. في هذا الاتجاه تأتي تصورات جورج سيل: «إن الحرب العالمية الثانية، أكثر من الأولى، لم يعد فيها ما

١- م.ن ص ٢١ (عام ٢٠٠٢)

٢- م.ن (عام ٢٠٠١)

٣- العولمة والثقافة ص ٢٤٨ والكوزموبوليتانية مصطلح يعني المواطنة العالمية، أصلها يوناني

٤- التاريخ الاجتماعي للوسائط ص ١٤١

٥- ثورة الانفوميديا ص ٢٨٠

يشبه وضع الحرب التي كانت تحدث قديماً بين الدول. إنها حرب أهلية في مجتمع واحد، هو المجتمع الدولي بأسره، ويجب أن يكون مخرجها تنظيم نظام فوق الدول... فالعالم لم يعد بوسعه العيش مجزأً إلى دول متعادلة. إنه ناضج من أجل الامبراطورية الكونية. ومن البديهي أن فكرة الامبراطورية الكونية تقدم التبرير لإرادة القوة الأميركية...^(١)

يتوافق ذلك مع تطلعات فئة من المفكرين ذوي الميول العالمية، كالطوباويين مثلاً، يصفهم ادوارد كار (عام ١٩٥٧) فيقول: «هؤلاء قوم مقتنعون أن للولايات المتحدة الأميركية دوراً تقوم به في المجتمع العالمي بسبب مواقفها السلمية والديموقراطية»^(٢) هكذا، فيما كانت الشعوب تتطلع إلى التقارب الإنساني المجرد، كانت السياسة تتطلع إلى جمع أجزاء الكون لتنصيب امبراطور عليه.

د- حلم السيطرة عند الولايات المتحدة الأميركية

لا شك في أن الطموح الأميركي إلى الهيمنة بدأ يترسخ بعد الحرب العالمية الثانية. ذلك أن الدول الأوروبية كانت منهكة من الحروب وذيولها في حين كانت الولايات المتحدة في حال راحة وتملك أعظم إنتاج في العالم. لكن نشوء القطب المقابل الذي هو الاتحاد السوفيتي، جعل العالم، موضوع الطموح، ثنائي القطبية، وكان من المستحيل توحيد بعد أن وجد نفسه بين مخالب الحرب الباردة، منقسماً إلى كتلتين، متعارضتين، صلبتين، ومغلقتين^(٣) وكان على أميركا أن تتنظر عام ١٩٩١ وانهايار الاتحاد السوفيتي لتغدو لاعبا وحيدا فوق القمم. يقول الدكتور محمد نابلسي: «هذا التوجه للعالم نحو العالمية هو ما يحاول النظام العالمي الجديد استغلاله بأدوات العولمة»^(٤) وتنصيب الولايات المتحدة رمزاً له.

وكتب جيمس كورث: «خلال جزء كبير من القرن العشرين، أدعت الولايات المتحدة قيادة الحضارة الغربية والدفاع عنها، ولاحقاً في أوقات أقرب، راحت تزعم أنها زعيمة العولمة...»^(٥) ويضيف: «من أواخر ستينيات القرن العشرين إلى أواخر ثمانينياته ظلت الولايات المتحدة قوة قائدة للبلدان الغربية... وبعد ذلك عادت من جديد قوة قيادية على امتداد نحو عقدين من الزمن (من أواخر الثمانينيات في القرن العشرين إلى أواخر العقد الأول من القرن الحادي والعشرين)

١- آفاق الفكر المعاصر ص ٤١

٢- مدخل إلى العلاقات الدولية ص ٧٩

3- Introduction aux relations internationales 256ص

٤- سيكولوجية السياسة العربية ص ٢٠٥

٥- الحضارات في السياسة العربية ص ٧٢

بالنسبة الى شيء أطلقت عليه اسم عولمة، وبالنسبة الى نوع من الحضارة الكوكبية، مع عودة دورها القيادي الى أن يصبح مقبولاً. الى حد أو آخر، لدى نخب الأعمال في الحضارة الأقدم^(١) ولكورث مقطع آخر شديد التعبير: «أدت الموجة الصاعدة من التجارة والاستثمارات المزدهرة في بلدان سائرة على طريق التصنيع، خارج أوروبا واليابان، إلى حفز بعض النخب (الأميركية) على التنبُّه إلى نوع من الحاجة لتطوير عقيدة جديدة للسياسة الخارجية الأمريكية تكون قابلة للتطبيق على طيف واسع من البلدان والثقافات المختلفة، وربما الصعبة، عقيدة تكون أرحب وأوسع على الصعيدين الجغرافي والثقافي من فكرة الحضارة الغربية، والأفضل أن تتمتع هذ العقيدة الجديدة بأفق كوكبي وكوني شامل...»^(٢)

هـ- نظام العرض والطلب وحرية السوق

فاز المحافظون في إنجلترا عام ١٩٧٩ وجاءت تاتشر الى الحكم، وفازوا في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٨٠ وجاء ريغان وفُوض ميلتون فريدمان مستشار ريغان وفريد ريش فون هايك مستشار مسز تاتشر إيجاد عقيدة مختلفة اقتصادية مع الحفاظ على الإطار العام للنظام الرأسمالي.

أكد المستشاران «أنه، كلما تمتعت المشروعات بحرية أكبر، بشأن استثماراتها واستخدامها للأيدي العاملة، كان النمو أكبر والمستوى الاقتصادي أعلى للجميع. وبناءً على هذا الاعتقاد راحت الحكومات الغربية، وهي ليبرالية النزعة في غالبيتها، تبذل، في الثمانينيات قُصارى جهدها من أجل تحرير رأس المال من القيود فألغت، على جبهة عريضة، ما كان سائداً من رقابة وتدخلات حكومية،... وراحت تضغط على كل الشركاء... لتطبيق هذا النهج، مهددين بالعقوبات التجارية، وبوسائل الضغط الأخرى»^(٣)

« التبادل الحرّ للسلع عبر الحدود الدولية، يؤدي، بحسب رأي دعاة التجارة الحرّة، إلى زيادة الرفاهية لدى كلّ الأمم المشاركة، لذا فإنّ فتح الحدود أمام السلع والأموال، وهو التحرير، وإخراج الدولة من أيّ قدرة على التحكم بالمشاريع والإنفاق، وهو الخصخصة، وتطبيق قانون العرض والطلب، و « هو أفضل الأنظمة المتاحة طراً، غدت الثالوث الاستراتيجي في السياسة الاقتصادية الأوروبية والأميركية.»^(٤)

١- م.ن.ص ٧٧

٢- م.ن.ص ١٠٧

٣- فتح العولمة ص ١٨٩

٤- م.ن.

و- الشركات عابرة القوميات أو المتعدّية الجنسيات

بعد الحرب العالمية الثانية شهد اقتصاد الدول الغربية انتعاشاً أدّى إلى الزيادة في دخل الأفراد، وبسبب الحرب الباردة، راحت الحكومات الرأسمالية تقدّم الدعم والضمانات لشعوبها، في تحديّها لوعود الاشتراكية. وكل هذا جعل دخل الفرد يفوق حاجته إلى الإنفاق على أمور حياته فمال إلى الادخار، ومن الادخار كذلك كانت تعويضات التقاعد تودع شركات التأمين أو سواها، كاستثمار. فإذا أضفنا تحرر أسواق المال، عام ١٩٧٠ من الرقابة الحكومية في الولايات المتحدة وألمانيا وكندا وسويسرا، فإننا نفهم كيف، دخلت، عبر البورصات العالمية والمصارف وشركات التأمين وصناديق الاستثمار المالي وصناديق معاشات التقاعد، طبقةً سياسيةً جديدةً مسرح القوى العالمية، ولم يعد بوسع أحد، أياً كان، مشرعاً أو مواطناً عادياً، التخلّص من قبضتها. إنها طبقة أولئك المتاجرين بالعملات والأوراق المالية، الذين يوجهون، بكلّ حرّية، (بسبب تحرير الأسواق)، سيلاً من الاستثمارات المالية متزايداً. وهم قادرون على التحكم برفاهية أو فقر أُمم برمتها...^(١) فهذه الشركات غدت تتصرف بثروات هائلة (سبعة بلايين مارك مثلاً في ألمانيا تديرها صناديق الاستثمار لهذه المدخرات، وعشرة بلايين أخرى للمدخرات الخاصة بصناديق التقاعد، وذلك بحسب دوتش بنك، ومنذ عشر سنوات) هذه الشركات هي عابرة للقوميات أو للجنسيات أو للقارات لأنها تجمع أموالها من جميع أنحاء العالم وتوظفها في أي ناحية من العالم تكون قادرة فيها على إنتاج بضائع أو القيام بخدمات بشرط أن تتصف بتدني الأجور، وبخلوها من مدفوعات الضمان الاجتماعي ومن تكاليف المحافظة على سلامة البيئة. إنها تخفض في الواقع التكاليف المطلقة التي تتحملها عملية الانتاج^(٢)، والهدف دائماً أكبر ربح ممكن، كما أنها تؤسس شركات عمل وانتاج في أي بلد، وتنقلها منه حين تشاء.

وفيما تكون هذه الشركات، العابرة للقوميات، لا قومية لها، ولا هوية ولا انتماء، فإن مواقع الكبرى منها في العالم «تتمركز في الثالوث العالمي: الولايات المتحدة الأميركية والاتحاد الأوروبي واليابان»^(٣). إنما الشركات المنتسبة إليها، والتي تؤسسها في مجال البلدان المضيفة، تأخذ هوية وطابع البلد الذي تؤسس فيه، وهي في تزايد مستمر إذ بلغ عددها عام ١٩٨٠ ما يزيد عن ٩٨ ألف شركة منتسبة^(٤). ومع التوسع المتزايد، والإفادة من تكنولوجيا الاتصالات والنقل في اتخاذ القرارات عن مسافات بعيدة جداً، أصبحت بعض هذه الشركات عملاقةً أكبر في الحجم المطلق

١- م.ن.ص ٩٩

٢- م.ن.ص ١٩٢

٣- جغرافية العولمة ص ١٥٢

٤- الشركات عابرة القوميات ص ٨٧

من بعض الدول»^(١) «بل هي ترعب الحكومات وناخبها على حد سواء»^(٢).

٢- الضوابط

إن عملية الانفتاح العالمي ، والانتقال من المرحلة القومية الى العولمة ، وإن ظهرت اختيارية وإرادية بهدف إنقاذ اقتصاد البلد القومي أو بغية ازدهاره ، هي عملياً قسرية وإلزامية ، بها ترتبط تسهيلات نقدية ، واجتذاب رؤوس أموال ، وتحديث ، لكن هذا كله يتم مع تجاوز للحس القومي والشعور الوطني ، ومع تضائل لقيمة الدولة ومجالات نفوذها على أراضيها . إنها لأمر يصعب تقبلها إلا بالإكراه .

لا بد إذن للعولمة من عصا تهدد المتردد ، وتتناول المخالف بالعقوبات . ولهذا ظهرت مؤسسات عالمية تمارس رقابة دائمة ، وتقوم بالتقييم الدوري ، منها مؤسسات مالية مصرفية ، وأخرى قانونية تجارية ، وغيرها تقويمية ...

أ- المؤسسات المصرفية المالية هي : البنك الدولي ، صندوق النقد الدولي والشركات العابرة للقوميات نفسها التي بيدها إجراء الاستثمار ووقفه عند الإخلال بشروطه .

• **البنك الدولي للإنشاء والتعمير** ، وهو كما يدل اسمه أنشئ بعد الحرب العالمية الثانية (عام ١٩٤٨) لمساعدة الدول المشاركة فيه على تجاوز آثار الحرب وإعادة بناء النظام ، وهدفه المحدد توظيف رأس المال في دعم القوة الإنتاجية ، وبذلك يساهم في تنشيط عالمي للتجارة .

• **صندوق النقد الدولي، International Monetary Fund** ، وكما يدل اسمه ، أنشئ عام ١٩٤٨ ليكون مشرفاً على أسعار العملات ، ومشجعاً على التعاون النقدي العالمي . والهدف هو أيضاً تنشيط وتطوير التجارة العالمية . كان إنشاؤه في أول أمره ، بعد الحرب العالمية الثانية لتنظيم العلاقات النقدية بين الدول الكبرى ، بتنسيق التعامل بالنقد وتداوله والعمل على تجنب التنافس المؤدي إلى خفض العملات ، وبيع النقد الأجنبي للأعضاء . أما خدمته لتطوير التجارة فتأتي في المساعدة على التخلص من القيود على العملات وهي السبب الأول لإعاقة التبادل التجاري ، فضلاً عن تقديم القروض^(٣) .

فيما بعد ، ومع بدايات العولمة ثم توسعها ونموها ، غدا البنك الدولي وصندوق النقد

١- جغرافية العولمة ص ١٥٣

٢- فخ العولمة ص ١٩٢

٣- معجم المصطلحات التجارية والمصرفية ص ٢٢٠

مؤسستين متعددتي الجنسيات لهما دور الرقابة على الالتزام بقوانين العولمة. وذلك يأتي من طريقتين: الأول دور المشورة الفنية في حلّ مختلف الاشكالات المالية، وفي تحديد أسعار العملات ومدى الحاجة إلى خفضها أو رفعها.. والثاني المساعدة في دعم الاقتصادات الوطنية ومدها بالقروض مع شروط تمكنها من التحكم باقتصاد تلك البلدان ، وهي شروط العولمة التي سيأتي تفصيلها.

ب- المؤسسة القانونية التجارية : منظمة التجارة العالمية WTO

عام ١٩٤٤ عُقدت «الاتفاقية العامة للتعرفة الجمركية والتجارة» GAT بين الدول الأوروبية بهدف تخفيض التعريفات الجمركية وتخفيف الحواجز أمام التجارة الحرة ، وشرطها المعاملة بالمثل إذ يكون التخفيض في التعريفات متبادلاً، ومنع ممارسات الاستحواذ كإغراق الأسواق ... عام ١٩٩٥ حُوّلت هذه الاتفاقية الى «منظمة التجارة العالمية» وأعطيت القوة والسلطات الواسعة لضبط حرية التجارة، مكملت دور البنك الدولي وصندوق النقد الدولي في دعم الليبرالية والاقتصاد الحر.

عملها مراقبة الدول الأعضاء في مدى اتباعها قواعد التجارة الحرة، تقيّد أحكامها جميع الأعضاء ، ولها القوة الكامنة لتفرض سلطاتها على الدول والقوى المحلية التي تنظم البيئة والانتاج والأمن الغذائي^(١)، مغطية ميادين التجارة في السلع المصنعة والمواد الخام ، والخدمات الزراعية، وحقوق الملكية الفكرية^(٢)، كما ان لها الحق في فرض عقوبات وغرامات على المخالفين .

ج- مؤسسات التقويم وكالات التقييم والتصنيف الدولية

Credit-Rating Agencies

وهي التي تصنف اقتصادات البلاد النامية ما بين صالح وطالح، وبذلك تقوم برفع قيمة البلد أو خفضها، فيتردد صدى ذلك على حياته الاقتصادية، لأن تقييمها هو الذي يعطي الضوء لتحركات الأموال وتدفقات الاستثمار عبر بلدان العالم. من تلك المؤسسات: ستاندرد إند بورز، موديز ، أيبكا . وينقل محمود عبد الفضيل عن فريدمان أن الهند ، حين أجرت تجربتها النووية، متحدية الارادة العولمية قررت وكالة «موديز» خفض تصنيف الاقتصاد الهندي من مرتبة الاستثمار، التي تعني أنه آمن للمستثمرين العالميين، الى مرتبة «المضاربة» التي تعني «أنه تكتنفه المخاطر». كما غيّرت وكالة «ستاندرد إند بورز» تقريرها عن الاقتصاد الهندي من «مستقر» الى

١- جغرافية العولمة ص ١٦٢

٢- من الحداثة الى العولمة ص ١٥٦

«سلبى» وذلك من شأنه أن يجعل أي شركة هندية، تحاول الاقتراض من الأسواق الدولية، تدفع أسعار فائدة أعلى...^(١)

تعريف العولمة : هي كل ما جرى عنه الحديث سابقاً وما سيأتي عنه لاحقاً.

وقد سبقت لنا الإشارة الى تشعب أصول العولمة، عسى أن نكون ألممنا بمعظمها ، وإلى تعدد وجوه العولمة، وهذا ما نحاول عرضه، فنتناول على التوالي : الوجه الاقتصادي فالوجه السياسي، فالوجه الاجتماعي، فالوجه التكنولوجي، فالوجه الثقافي.

أولاً: الوجه الاقتصادي

تقوم العولمة الاقتصادية على مبادئ الليبرالية الجديدة وأبرزها التجارة الحرة وعدم تدخل الدولة في عمل السوق .

ويعتبر فريدمان، مستشار الرئيس ريغان، منظر المبدأ انطلاقاً من «النظرية النقدية Monetarismus : «إن حرية رأس المال في الانتقال عبر جميع الحدود الدولية هي التي ستحقق استخدامه الأمثل .. فانطلاقاً من الرغبة في تحقيق أعلى الأرباح ينبغي للأموال المدخرة في العالم أن تنتقل دوماً الى تلك المجالات التي تحقق لها أفضل استخدام. ومن منظور النقديين (أصحاب النظرية النقدية) فإن هذه المجالات هي طبعاً ذلك الاستثمار الذي يحقق أعلى عائد. وبهذا ستنتقل الأموال من البلدان الغنية برأس المال الى المناطق الغنية بالفرص الاستثمارية، الامر الذي يحقق للمدخرين أكبر ما يمكن جنيته من عائد، فيما يكون بوسع المقترضين المقارنة بين مقدمي القروض في أرجاء المعمورة واختيار من يقدم أدنى الفوائد، وذلك بدلا من الخضوع للاحتكارات المصرفية المحلية ، ودفع الفوائد العالية لها ... في المحصلة النهائية ستكسب (بحسب النظرية) جميع الأمم ، لأن انتهاج هذا السبيل هو الطريقة التي ستضمن أفضل استثمار، وأعلى معدلات نمو... »^(٢)

«أصبحت التجارة عنصراً مهماً جداً في الاقتصادات القومية ،مع فتح الحدود عبر العالم، مع أن التدفقات التجارية مركزة بشكل متزايد. ففي العام ٢٠٠٢ مثلاً ، استأثر العدد الصغير من البلدان الكبيرة بالنسبة الساحقة من صادرات العالم . أهمها الولايات المتحدة (٧ , ١٠ ٪) وألمانيا (٥ , ٩ ٪) واليابان (٥ , ٦ ٪) ، وعلى الرغم من اتجاهات العولمة، ما زالت البلدان تميل نحو المتاجرة مع الأقاليم الأقرب لدرجة أن كثيراً من التجارة العالمية هي ضمن المنطقة .. ومن حيث

١- مجلة الهلال ، فبراير ٢٠٠٠ ص ٢٢

٢- فح العولمة ١٢٠-١٢١

الأهمية النسبية للصادرات والواردات يوجد أعلى فائض في شرق آسيا والشرق الأوسط...»^(١)
وقد «برزت في نهاية القرن العشرين قضية اللامساواة الاجتماعية والاقتصادية بين بلدان العالم المتقدم والكثير من بلدان العالم الثالث، كما برزت نظرية العمل على استمرارها والتأكيد على فعاليتها من أجل نمو عملية الاقتصاد العولمي...»^(٢)

أما الشركات العابرة للقوميات فقد غدت (في أوائل هذا القرن) تهيمن على ثلثي التجارة العالمية.. من هنا فإن هذه الشركات صارت محور العولمة، والقوة الدافعة لها بلا انقطاع.. ذاك أن طرق الإمدادات الحديثة، وتكاليف النقل المنخفضة، تمكّنها من توحيد مراحل الإنتاج... فشركة جيدة التنظيم مثل الشركة العملاقة AAB تمتلك ألف شركة موزعة على أربعين بلداً، وتستطيع عند الحاجة تحويل انتاج كل سلعة تنتجها من بلد إلى آخر في غضون أيام قليلة... هكذا لم تعد البلدان وشركاتها الوطنية هي التي تقوم بالمتاجرة بما ينتج عندها من السلع، وبالتالي ليس أمامها أي فرصة للتفاوض على حصة من الأرباح المتحققة في التجارة الدولية، فيما، بالمقابل، صارت اليد العاملة العالمية هي التي تتنافس على فرص العمل الضئيلة التي يتيحها الانتاج المنظم عالمياً.^(٣)

هكذا تبدو العولمة وبالأعلى دول الجنوب ومصدر تهديد للدول الفقيرة والغنية على سواء... فالبطالة تتفاقم فيها كلها، فيما تزداد باطراد دخول أصحاب الثروات. أجور العمال تتراجع، والمشاريع، إن زادت استثماراتها، فهي تفعل ذلك باعتماد تقنيات متطورة مستغنية عن اليد العاملة البشرية، فتتنامي البطالة أكثر فأكثر، ولا يعود بمقدور الدول، حتى الأوروبية منها، إذا اهتزت، أن تتماسك، فضلاً عن أن تتطور وتتجدد.

هذا وقد اعتبرت الولايات المتحدة الأميركية مركزاً لا منافس له في الابتكار والتجديد التكنولوجي وتراكم رأس المال.. وهي إذ تجعل من نفسها راعية للنظام العالمي في السياسة، تسعى إلى إملاء شروطها على جميع شعوب العالم، غير مغفلة العامل الاقتصادي. وهي تخطط للسيطرة على مصادر البترول في العالم، كما تخطط للهيمنة على حقوق براءات الاختراع، فضلاً عن التحكم في وسائل الاتصالات الدولية، بل وفي الاتصالات نفسها.

ومن جملة اهدافها احتكار انتاج البذور المؤصلة جينياً، لضمان السيطرة على انتاج المواد الغذائية في العالم... والسلسلة طويلة. ونريد هنا أن نذكر بالشروط التي تفرضها المؤسسات المالية العالمية كالبنك الدولي وغيره، على كل بلد يرغب في قرض:

١- جغرافيات العولمة ص ١٢٩

٢- من الحداثة الى العولمة ص ٢٥٤

٣- فح العولمة ص ١٩٢

- أن يفتح مصارفه وأسواقه المالية أمام رأس المال الأجنبي
 - أن يخصص معظم المشاريع والخدمات الحكومية
 - أن يُحظر على حكومته التدخل في عملية السوق الحرة وفي أي نوع من أنواع الحماية للإنتاج أو للعمالة: لا دعم لمواد غذائية أو استهلاكية، لا تقديمات، لا ضمانات إلا في أضيق الحدود ...
 - أن يحرر سوق السلع عنده من جميع عوائق الاستيراد والتصدير (كالضرائب مثلاً) ^(١)
- وبذا تفقد الحكومة معظم سلطاتها الأساسية وقدرتها على التحكم في السياسة الداخلية، فكأن هذه السياسة باتت «ترسم» من الخارج، عالمياً.

ثانياً: الوجه السياسي: النظام العالمي الجديد

هل يوجد فعلاً «نظام عالمي»؟ البعض يراه سراباً، والبعض يراه مفهوماً غامضاً، والواقع أنه موجود فعلاً ويحقق وجوده بشكل ممارسات مطلوبة من جميع الدول. تتطلبها المؤسسات المالية التي كبرت حتى تحدت الدول، متجاوزة (متعدية) القوميات، بدعم أو بلا دعم من الدول الصناعية الكبرى، إنها، حتماً، برعاية من أمريكا التي تحمل لواء الديمقراطية والسلام، تلوح به عندما تريد، وتدعو إليه وتدعيه، بصورة دائمة. وفي كل مناسبة، لتقرن صورتها في أذهان أناس العالم، بمبادئ الحرية والديموقراطية. والمؤسسات المتحكمة منها من أخذ مواقع رسمية ظاهرة، وممارس نفوذها علناً، يحيي ويمنع الحياة (اقتصادياً)، يُقرض ويحجب الإقراض، يفرض الشروط، كما يفرض العقوبات، دون أن يخرج عن الإرادة الأميركية: إنها مؤسسة البنك الدولي، وصندوق النقد الدولي ومنظمة التجارة العالمية.

ومن هذه المؤسسات ما يعمل في الخفاء، وهدفه الربح الكبير بل أكبر ربح ممكن، مستفيداً من انفتاح السوق العالمية ليقنص فرص الاستثمار المربح. وهذا شأن شركات التمويل المتعدية الجنسيات، وهي، مع عظم نفوذها، تراعي البنك المركزي الأميركي، أكبر منتج للدولار.

ويرى الدكتور محمد نابلسي «أن النظام العالمي الجديد يعني سيطرة القطب الواحد (الأميركي) بعد نهاية الحرب الباردة»، وأن الاتصال الانساني يبحث دائماً عن التسهيلات والابتكارات التي تدعمه.. وفي مقدمتها إرساء النظم الرمزية القابلة لأن تكون مشتركة بين البشر، هذه النظم الرمزية هي «التي يحاول النظام العالمي الجديد استبدالها بالنظم الرمزية الأميركية، حتى بدا الاستغلال الأميركي للواقع العالمي الراهن كأنه هو صانع العولمة وموجهها،

في حين أن كل ما يملكه النظام العالمي الجديد هو مجرد محاولات فاشلة لاستغلال توجّه العالم نحو العولمة»^(١)

مرتكزات النظام العالمي

١- الديمقراطية هي مطلوب أول في النظام، وعند قطبه الأول أمريكا . وهو مطلوب عند جميع دول العالم . وربما يتبادر سؤال : ما يهم أمريكا من شعب ارتضى لنفسه حاكماً أو وحداً وأحبه، فتريد اجتثاثه وفرض الديمقراطية مكانه ؟ هل هي محبة للشعوب المقهورة المظلومة (في رأيها) ؟ ليس هذا ما تثبته المواقف المعروفة لأمريكا . والحقيقة هي أن الديمقراطية مفهوم غير محدد، باسمها يمكن القيام بكثير من الأمور المتناقضة . والديموقراطية المطلوبة من أمريكا، وهي مفروضة عليها من المؤسسات المالية الضخمة المتحكمة بأسواق العالم، هي أن لا يكون للبلد حاكم يتدخل في كل شؤونه . إن النظام غير الديمقراطية لا يكون سلبياً ولا محايداً ، وربما لا يقبل بانفتاح السوق، وحرية سيلان تدفق الأموال، ولا يقبل عدم التدخل في الانتاج ، ولا بأن يكون مشلولاً عن التصرف في أمور الناس، النظام الديمقراطي هو المرادف لحرية السوق والانفتاح على العالم، وهذا ما يهم أمريكا ونظامها .

٢- الانفتاح الإنساني والدولي في العالم كله .

٣- إزالة الحدود الاقتصادية والمعنوية والثقافية بين دول العالم ، الانتقال الحر والشامل .

٤- حق مؤسسات الرقابة التدخل في الأمور الداخلية في أي دولة لمراقبة الانفاق الحكومي (وترشيده) ، والاستهلاك الشعبي .

٥- تصنيف الدول على كل صعيد وخصوصاً حول مراعاة حقوق الإنسان، والحريات .

٦- إمكان إجراء محاكمات وفرض عقوبات من خلال مؤسسات الأمم المتحدة ، وحتى من خارجها .

٧- الدعوة الى السلام العالمي ، ورفض العنف ، ونبذ اللجوء الى القوة لفض النزاعات .

٨- تحريم استخدام أسلحة الدمار الشامل ، وإنشاء مؤسسات للمراقبة والمتابعة .

٩- حماية الأقليات

١٠- في المال: تحديد أسعار السلع الأساسية عالمياً، تحديداً حرّاً عن طريق البورصة

١- سيكولوجية السياسة العربية ص ٢٠٤

(أسعار العملات، المواد الغذائية، النفط، المعادن ..)

١١- النظام القانوني العالمي.

١٢- حماية البيئة العالمية والوطنية

وانضمام الدول الى هذا النظام قد يكون عن طريق معاهدات أممية : لجنة حظر انتشار أسلحة الدمار الشامل، لجنة حظر انتشار الاسلحة الكيماوية ، لجنة حماية البيئة ، العضوية في محكمة العدل الدولية الخ .. والولايات المتحدة الأميركية، راعية النظام والساهرة على تطبيقه ، تلتزم به في حدود مصالحها ، فهي لا تنضم في اللجان المنبثقة عنه كلها ، فهي ليست عضو في معاهدة الاحتباس الحراري مثلاً ، على ما تشكل هذه الظاهرة من خطر على مناخ العالم.^(١)

المفروض بالأمم المتحدة أن ترعى الكثير من عناصر هذا النظام ، بمنظوماتها ولجانها الكثيرة. لكن لا بد من وجود مخالف أو رافض ، أو مقصّر يستحق الردع أو العقوبة ، وربما تصدر أحكام عن محاكمها فتكون الحاجة الى الشرطي. فإذا ما فرضت عقوبة وافق عليها مجلس الأمن بالإجماع ، أو صدرت عن جهة قانونية مفوضة من مجلس الأمن، تتطوع دول لتنفيذها عسكرياً واقتصادياً. وهي عادة الدول الكبرى الراعية للنظام.

والواقع أن أي تحرك من هذا النوع لا يتم، جماعياً أو انفرادياً، بلا موافقة الولايات المتحدة الأميركية، فيما تقوم هذه الدولة العظمى بالتفرد أحياناً، وبمباركة أوروبية، باتخاذ القرارات وفرض عقوبات اقتصادية أو عسكرية على دول ناشزة ، بحجة الحفاظ على قيمة الحق والحرية والديموقراطية، وبحجة عجز الأمم المتحدة، وبوصفها الراعي الأول للنظام العالمي. وشيئاً فشيئاً، تقضي هذه العولمة الى سيادة أحادية واجهتها زعيمة العالم، الولايات المتحدة الأميركية، وباطنها الشركات المتعددة الجنسية مع نظامها القانوني الجديد بقواعده وقضائه وجزاءاته.

إن الدعوات الى تزعم الولايات المتحدة العالم المعولم، لم تبق مجرد نظريات ولعلها لم تنطلق من العدم ، ولربما يكون كثير منها تسريباً من الادارة الاميركية، وتمهيداً لتحقيق مخططاتها. هذا المخطط غدا ملموسا في سلوك الولايات المتحدة. فهي تتبنى العمل على خلق الاستقرار في العالم ، ومكافحة الارهاب، وارساء حكم الديموقراطية، واحترام القانون الدولي ، مع الفارق الكبير في الحوافز بين الظاهر والخفي في معظم المواقف. فالمصلحة القومية الأميركية فوق كل شيء، وكل ما يهدد هذه المصلحة تشن عليه حرباً ، وهي راعية النظام العالمي الداعي الى

١- بروتوكول وقعت عليه ١٦٧ دولة عام ١٩٩٧ وفي العام ٢٠٠٤ صادقت روسيا على الوثيقة فيما كانت أمريكا قد انسحبت من المفاوضات عام ٢٠٠١ لأن شروطه غير عادلة بالنسبة الى البلدان النامية^{١٩}.. جغرافية العولمة ص ٣٩٧

السلام، تكون حرباً لأجل السلام وباسم النظام العالمي. وحروب أمريكا الحديثة معروفة. وفي الأزمة السورية يتجلى الدور الرائد لأمريكا في قيادة العالم، في مواقف وحتى في تصريحات. فهي القائد وهي الشرطي، وهي المدافع عن الأبرياء والمظلومين، فإذا قصّرت في ذلك فقدت مصداقيتها، وتهدّد أمنها القومي، ظاهرياً خوفاً من تعدي الارهاب، وعملياً خوفاً من اهتزاز صورة القائد الرائد. وتطالعنا تصريحات معبرة في نشرات الأخبار. اذ من الطبيعي أن السياسة العليا للدولة لا يفقهها المواطن العادي، والمواطن الأميركي بالذات قلما اهتم بأمور السياسة. تساءلت عدة مواطنات ومن بينها عضوة في الكونغرس: لماذا أمريكا؟ لم عليها أن تعاقب المجرم، هي من دون سائر دول العالم؟ والجواب يأتي من مستشار الأمن القومي للرئيس السابق بوش، في التاسع من أيلول ٢٠١٣، اذ يقول: «اذا لم تتخذ امريكا اجراء رادعاً ضد الأسد، ستفقد مصداقيتها حول مركزها القيادي للنظام الأممي»

ثالثاً: الوجه الاجتماعي

١- الإنتماء إذا كانت الظاهرة العولمية تدرس على المستوى العالمي، فإن للوجه الاجتماعي نوعين من التجليات: المواطن العالمي، العالمية للمواطن.

المواطنون العالميون فئة من الناس المنفتحون على العالم كله، وذلك ربما ينسبهم انتماؤهم إلى مجتمعهم الأصلي. «إن الصحفيين، وخبراء برامج الكمبيوتر، والممثلين يقومون برحلات ويتحملون عناءاً أكثر مما يقوم به ويتحمّله الدبلوماسيون والقائمون على شؤون السياسة الخارجية. يبدأ أحدهم نهار عمله على سبيل المثال، في إحدى المدن المجرية الصغيرة لحل مشكلة زبون أصابه اليأس والقنوط، أو في حديث مثير مع أحد الشركاء، ويكون عسراً على موعد في هامبورغ، وفي المساء يسافر الى باريس للالتقاء بالخطيبة الجديدة التي صارت على أهبة تركه، أما في اليوم التالي فإنه سيكون في المقر الرئيس لشركته المقيمة في مكان ما من هذا العالم الفسيح، ليسافر، من ثم، الى الولايات المتحدة الأميركية أو الى جنوب شرقي آسيا. إن من يحتاج الى بعض الثواني، حين يستيقظ من نومه، ليحي في أي قارة قضى ليلته المنصرمة هو بلا شك واحد من تلك الطليعة، الجوّابة للعالم على نحو دائم»^(١)

وبالمقابل تغزو العالمية الناس في عقر دارهم. فالمعروف أن المواطن يتحمس لفريق بلده الوطني في كرة القدم، أو لفريق من الأفرقة المتصارعة على البطولة، ونذكر بالتعريف الذي كان يتم في مصر عند تلاقي شخصين «أنت أهلاوي ولا زمالكاوي»؟ والآن تجري مباراة في كأس

العالم بين الفريق الانكليزي والالمانى، او البرازيلي، او الاسباني ، فتخرج الجموع في شوارع المدن اللبنانية تزق، وتصرخ، وتزمر، وتحمل اعلام بريطانيا أو ألمانيا أو... ويشتهر بطل الكرة «بيليه» مثلاً فتنتشر في دول العالم صورهم، والقمصان التي تحمل تلك الصور، والأحذية الرياضية التي تحمل اسمه، أو نوع الأحذية التي يعرف ببيليه بلبسها ، هنا احساس يرضي الشاب بأنه يتجاوز حدود انتمائه القريب الى انتماء عالمي ..

والأمثلة لا تحصى، ولن أحاول استقصاءها، فنحن نراها ونلمسها.

والاحساس بالانتماء خارج حدود الوطن والقومية واللغة غداً ممكناً ، عن طريق موقع الكتروني، أو يتخذ المرء على صفحات «فايس بوك» أو «تويتر» أو «يوتيوب» أو سواها من الصفحات، يعرض على موقعه ما يشاء مما يتعلق من أحداث ووقائع وآراء وتعليقات وصور من أي نوع، وفي أي موضوع ، يطلع عليها رواد الموقع من أي مكان في العالم، كما يدخل هو الى مواقع الرواد الآخرين ليطلع على ما يعرضونه . إن ما يمضيه هذا الفرد من وقت عند موقعه، وما يتبادلته من حوار ونقاش ومعلومات مع الرواد ، هو أكبر بكثير مما يحظى به أي مكان أولقاء في محيطه القريب . ولعل احساسه بالطيران فوق الحدود يخفف من كثير من انتمااته المألوفة: عائلية، قومية، عصبية، لغوية ، وربما تتكون جماعات على هذا المستوى الواسع، وربما تغدو مجتمعات عابرة للحدود على نمط الشركات المتعدية الجنسيات ، ونحن نرى أهمية هذا الانتماء على الصعيد الوطني والإقليمي ، ونفهم كيف يمكن جمع هذه الحشود الضخمة من المواطنين ، للاحتجاج أو للتأييد ، فيما بات يعرف بالمليونيات . ولربما يكون لها دور مفاجئ في أي انتخابات تحصل ويكون فيها دخول أول لعدد كبير من الشباب الى عالم السياسة والانتخاب ، ولا شك في ان هذه المواقع بدأت تأخذ أهمية كبيرة في حياة الجماعة المحلية والعالمية حتى بات للسياسيين مواقعهم و أيأ كانت مراكزهم من الرئاسة العليا الى الطامحين .

ب- أثر الاقتصادي في الاجتماعي؛

١- إن تحييد الدولة عن إدارة عجلة الاقتصاد وضبط تجاوزاتها، والخصخصة الواسعة التي رهنت الكثير من مقدرات البلد للشركات الأجنبية، وخفض الدعم والضمانات الاجتماعية ، مع صرف اليد العاملة واعتماد التكنولوجيا، هذه آفات أحدثت في جسد مجتمع البلدان النامية تفككاً وانقسامات، ونقمةً واضطراباً، كما أن الفروقات الثقافية بين دول الشمال ودول الجنوب واختلاف التطلعات والأهداف خلقت حالة من عدم الاستقرار، فتكررت الأزمات السياسية، وتعددت مناطق الصراع الاقليمي في العالم.

عوضاً عن الرفاه الموعود ، بات الانسان في البلدان النامية مضطرباً نفسياً ، قلقاً معيشياً،

يجهد في تأمين ما يلبي حاجاته الضرورية، فافداً الثقة في الدولة التي تلزمها شروط وفاء الدين بقهره واضطهاده، فالقرار يعود الى المؤسسات متعددة الجنسيات، أو الشركات المتعدية الحدود.

٢- تتزايد التوترات الاجتماعية وتتصاعد وتيرتها في مختلف أنحاء المعمورة:

في البلدان الصناعية المتقدمة يتزايد العداء للأجانب، وهذه عنصرية جديدة تسببها المزاحمة على مورد الرزق لأن المؤسسات المُقرضة أو المنتجة، في سعيها الى زيادة الربح، تبحث عن اليد العاملة الرخيصة. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فالاجنبي الذي يدخل البلد، إن لم يعمل ويُفد من خيرات هذا البلد، يكون عالة عليه، ويتمتع بما يقدمه البلد من ضمانات، وربما انصرف الى تعاطي المخدرات أو الانخراط في عالم الجريمة، وقد باتت الجريمة، كأى مؤسسة أخرى في مجال النظام الحر، تموّل بلا رقابة أو حواجز فاعلة. يقول أحد موظفي الإنتربول: «إن ما هو في مصلحة التجارة الحرّة هو في مصلحة مرتكبي الجرائم أيضاً. بحسب تقديرات مجموعة خبراء شكلتها الدول الاقتصادية السبع الكبرى عام ١٩٨٩ ارتفع حجم المبيعات من السلاح في السوق العالمية الى عشرين ضعفاً خلال عشرين عاماً، أما المتاجرة بالكوكايين فقد ارتفعت إلى خمسين ضعفاً، ومن هو قادر على المتاجرة بالمخدرات يستطيع، بلا ريب، المتاجرة بكل شيء آخر ينافي القوانين»^(١)

ثم راحت فكرة الإرهاب، القادم مع الاجنبي، تدخل في التداول، يروج لها العنصريون الجدد، وكثر الضغط الشعبي على الحكومات الأوروبية عامة للحد من قبول المهاجرين، وقد غدا هذا «الحد» أحد الشعارات، يتبنّاه مرشحون إلى المناصب التمثيلية أو الرئاسية.

إن تهميش المستضعفين، بلداناً وأفراداً، غدا سمةً غالبيةً في النظام العالمي الجديد. فعندما تدخل الشركات المُقرضة أو المستثمرة سوق بلد، فهي تدّعي الرغبة في الاستثمار وجني الأرباح. وهذا يكون لمصلحة البلد ولمصلحة الشركات. وهذا، إن تمّ بصورة عادية يؤدي الى أرباح مشروعة ومحدودة، فيما تتطلب هذه الشركات الأرباح الضخمة، لذلك يكون على السوق التي تدخلها أن تكون الضرائب على عائدات الاستثمار فيها شبه معدومة، وكلفة الإنتاج في غاية الانخفاض، وهذا يُترجم استخداماً للتكنولوجيا وحصر الحاجة الى اليد العاملة في أدنى حدود، وأن تكون معدلات التضخم متدنية، والعملة محافظة على سعر صرفها، وهذا يعني عدم وجود فائض مادي بين أيدي الفئة المستهلكة، وهي الطبقة الوسطى على الخصوص والطبقة دون الوسطى، وهذا يضمنه أمران: خفض العمالة الذي أشرنا اليه، وتخفيف الضمانات والمعونات الحكومية على اختلافها للمواطنين، ثم إلغاء الدعم على السلع الاستهلاكية (النفط مثلاً)، والغذائية (القمح مثلاً).

كل ذلك يؤدي الى تهالك المتماusk ، وإفقار المتهاالك ، فيما الطبقة الثرية يزداد ثراؤها لالتحامها برأس المال الوافد .

وردة الفعل الطبيعية ضد البطالة والافتقار والتهميش هي واحدة حتى في الدول الكبرى . لأنها تمارس سياسة التجارة الحرة . هذه الردة تكون على وجهين : سلبي وإيجابي . في الوجه السلبي نجد اليأس من الحاضر وعدم الثقة بالسياسة والسياسيين ، ومقاطعة الانتخابات . فغدت نسبة خمسين بالمئة من الناخبين مستوى ناجحاً ، وربما حلماً بعيد المنال^(١) .

وفرض العمل الضائعة ليست محصورة في قطاع الانتاج ، بل إن قطاع الخدمات غدا مهدداً ، والوظائف المكتبية عرضة للتقلص مع تزايد المكننة . «وأضحت الأعمال التي كان المرء يرى فيها مهنة سيستمر العمر كله في تأديتها ، مجرد فرص عابرة . ومن كان بالأمس متخصصاً في مهنة ذات مستقبل واعد غدامهدداً أن تتحول كفاءاته ودراساته وتدريبه قدرات لا حاجة اليها»^(٢) وهذا نشهده بوضوح في قطاع المصارف التي كانت تتوسع فتفتح الفروع في الملحقات وحتى في البلدان الأخرى . فأصبحت الحاجة الى المكاتب والموظفين محدودة بعد أن غدا بإمكان الزبون ، اينما كان في العالم ، القيام بأي عملية مصرفية من حاسوبه الشخصي ، بل من هاتفه الذكي .

وحتى الوظائف الحكومية تغدو لا دائمة ولا ثابتة . ومبدأ الصرف من العمل لتخفيف الأعباء وارد عند الدولة التي تخضع للاقتراض من المؤسسات المالية المتعددة الجنسية . ويمكن للصرف أن يسهل ويسوّغ بالاستعانة بالحواسيب . وهذا ربما يفسر لنا قراراً اتخذته الحكومة اللبنانية منذ سنوات قليلة ، بالإقلال من الموظفين الثابتين والاستعاضة عنهم بالمتعاقدين ، الامر الذي قامت القيامة عليه فغضّ النظر عنه في حينه ، لكنه ربما يعود الى الظهور ، لأن خفض عدد الموظفين من شروط البنك الدولي لخدمة الدين ، والاستغناء عن المتعاقدين أهون من صرف الموظفين الدائمين ، ناهيك عن قلة الخدمات والضمانات التي تُقدّم للمتعاقدين بالنسبة الى ما يناله الموظفون الدائمون ... إنها العولمة .

رابعاً : الوجه التكنولوجي : التواصل والاتصال

«في كاليفورنيا ، في الرابع من مارس ١٩٩٦ ، وهو يوم «الشبكة» ، «من أيام المجاز» ، وقع الحدث الرمزي الكبير حيث اشترك كلنتون وغور مع آخرين ، منهم رئيس الوكالة الفيدرالية للاتصالات FCC ، في تركيب أسلاك تلفونية تربط فصول مدارس كاليفورنيا بالانترنت ووعد الرئيس بأن كل فصول المدارس الأميركية سيتم ربطها بالانترنت قبل حلول القرن الجديد ، عن

١ - في الانتخابات الرئاسية الاميركية عام ١٩٦٠ بين كندي ونكسون ، لم يصوت سوى ٧٠ ، ٦٠٪ من مجموع الناخبين ، وفي عام ١٩٩٢

لم يصوت لمصلحة كلينتون سوى ٢٤ ، ٢٠٪ (م.ن ص ٢٨٣)

٢ - م.ن ص ١٧٣

طريق شبكة البنية التحتية المعلوماتية القومية . جاء ذلك في الوقت الذي وصف بها فيه وزير التعليم في حكومة كلينتون بأنها «سبورة المستقبل»^(١)

دخلت الانترنت بقوة عالم التربية والتعليم ، ولا تزال تتغلغل فيه حتى غدا الحديث عن المدرسة بلا صفوف ولا كتب أمراً عادياً .

والواقع أن الحاسوب والانترنت كان القمة التي وصل اليها تطور الوسائط ، انما هذه الوسائط كانت موجودة وكانت فاعلة في الأفراد والجماعات . «التلفزيون والفيديو ، وألعاب الفيديو ، وأجهزة الحاسب الشخصية تشكل جميعها نظاماً إلكترونياً شاملاً تتداخل أشكاله المتنوعة لتؤلف عالماً بديلاً ومطلقاً ، يدمج المشاهد /المستخدم بشكل متفرد في دولة غير مركزية مكانياً يضعف فيها تأثير الزمان ، متحررة من المادة الى حد بعيد»^(٢)

والذي حاذى الانترنت والحاسوب في الاهمية ، ثم انضم الى العائلة فبات جزءاً منها وابناً باراً متفوقاً «ذكياً» لها ، هو الهاتف الخليوي . في العام ١٩٨٣ رخص في الولايات المتحدة الأميركية لأول هاتف محمول . وفي العام ١٩٨٩ بلغ عدد المستخدمين المليون . لكن الازدهار جاء بعد ذلك فقد راحت الأعداد تتزايد في أوروبا وآسيا ، كما في الولايات المتحدة ، ففي بريطانيا كان عدد المستخدمين ستة ملايين عام ١٩٩٦ ، وفي العام ٢٠٠٠ بيع ما لا يقل عن ٢,٥ مليون تلفون محمول يعني ذلك بيع جهاز تلفون كل ثانيتين . فكتبت إحدى الصحف عنواناً : «نصف الأمة أصابه جنون التلفون : وعنواناً آخر «الوقوع في غرام التلفون المحمول» . وكانت بريطانيا في هذه الفترة متقدمة على الولايات المتحدة ، في حين كانت فنلندا وإيطاليا متقدمتين على بريطانيا.^(٣)

ونحن نرى كيف يواصل الهاتف المحمول تطوره السريع المذهل ليغدو مع صفر حجمه المتزايد مجموعة أجهزة تواصل ، وسكرتاريا ، ومنظم عمل شخصي ، ومسلية ، تقدم من الخدمات ما كان مجرد حلم . بل ربما سبق جميع الأحلام .

تكنولوجيا :

ننقل فيما يلي مقطعاً من كتاب ثورة الانفوميديا . المنشور عام ١٩٩٥ يذكر فيه توقعات للمستقبل : «لن تحتاج الى وجودك في المنزل لكي تعرف ما يفعل الأطفال ، كما لن تحتاج أن تكون داخل منزلك لكي تغلق النوافذ اذا ما امطرت السماء ... ولنفترض أنك قمت برحلة ونسيت أن تغلق إحدى النوافذ ، بل وتركت الباب مفتوحاً... ما عليك إلا ان ترفع سماعة هاتفك وتتصل

١ - التاريخ الاجتماعي للوسائط ص ٢٢٨

٢ - م.ن.ص ٤٠٧

٣ - م.ن.ص ٣٨٦

بالمنزل (بالمعنى الحرفي) وتأمّره بإغلاق النوافذ والأبواب .. ستصبح حجرات المنزل وكأنّها تحسّ بمن يشغلها، ويتحدّد الجو العام داخل كل حجرة بحسب طبيعة الحجرة نفسها ومن يتواجد فيها، والجو العام في المحيط ،، فإذا كان اليوم مشمساً .. تنفتح النوافذ من تلقاء نفسها لتسمح بدخول نسيم الهواء العليل ، ويأخذ التلفزيون في بثّ أخبار عن الطقس وغيره .. وبمجرد ما ترتفع درجة الحرارة والرطوبة تسارع النوافذ بالانغلاق وتسدل الستائر تلقائياً وتبدأ أجهزة التكييف بالعمل ... وسيشهد المستقبل قدرة منازلنا على الاستجابة لأصواتنا ، تماماً مثل الكومبيوترات والتلفزيون .. سنقوم بإصدار الأوامر للنوافذ بأن تغلق وحدها ولكي نحدّد نوع الجو الذي نرغب أن يسود الغرفة ما علينا إلا أن نخبر بما نريد ... »

طبعاً كل ذلك عن طريق كومبيوترات وموتورات مؤازرة . ونحن نرى أن الكثير من هذه الشطحات الخيالية تتحقّق ، طبعاً في البلدان المتطورة ، فغدا الصراف الآلي يتعرف الى الزبون من صوته أو من نظراته وبصمة عينه ، فكل شيء يمكن أن يستجيب للأتمته حتى ان الحاجة الى الرجل الآلي تتضاءل. والمتابع لأخبار هذا التطور، إذا استطاع اللحاق بأخباره ، يسمع الكثير.

الإعلام: والوسيط الآخر الذي يخالط حياتنا اليومية هو الإعلام.

فوسائل الإعلام لم تعد تنقل إلينا خبراً عن حدث جرى وممرّ عليه زمن ، أيّ زمن ، بل أصبحنا نعيش الحدث ، لحظة الحدث، نعين ما يجري، ونسمع ما يقال ، ويتم حوار ونقاش مع العاين أو المراقب أو المسؤول، ويمكننا نحن المشاهدين المشاركة وطرح الأسئلة وإبداء الرأي ، أيّاً كان الحدث وفي أي منطقة من العالم . هنا لا يعود العالم قرية بل يصبح كأنه غرفة منزل

ولأن الإعلام غدا بهذه القدرة، ولأن أدوات المتابعة غدت سهلة الاستعمال، وبمتناول معظم الناس، ما عدا المعدمين وسكان البلاد الفقيرة المنهكة بالحروب والجوع، كما في بعض نواحي أفريقية، فإن الإعلام غدا سلطة، لا السلطة الرابعة كما سميت الصحافة، بل هو السلطة الأولى في بعض الأحيان، يشكل الرأي العام برؤية من الزاوية التي تناسبه فيثير، ويجمع ، ويحفر، وقد يجيئش ويساعد في بناء المواقف وتحريك الجماعات في اتجاه أو آخر. وهذا ما يجعل دوره، المشكور في ربط أجزاء المعمورة، وتقريب اهتمامات الناس في انحاءها المتفرقة، وتعميم الإحساس بالأخطار والمشاركة في المصائب، هذا الدور يلامس الخطر، ويحرك الكوارث، وغدا بعض رجال الإعلام معروفين، كالممثلين ورجال السياسة، وغدا محبوبيين أو مرهوبي الجانب، يحاورون الساسة وأصحاب المراكز وحتى الرؤساء، فلا يتخلف أحد عن حوارهم، ويتقبلون قساوتهم وتعنتهم في بعض الأحيان ، فأى سلطة لهم ؟

نحن لن ندخل في بحث مفصل عن الوسائط. ولكن مما لا شك فيه ان التلفزيون هو الوسيط الإعلامي المميز، ولقد غدا عريقاً في هذا الدور، وتزايدت قيمته بعد إنشاء محطات البث بالأقمار الصناعية، وعُرفت الفضائيات، فتحول دور التلفزيون من وسيلة تسلية، ثم تعليم وترفيه، الى دور كائن حي، فرد من العائلة في كل بيت، وربما في كل غرفة من بيت، انه يعني «معايشة العالم في غرفة المعيشة الخاصة بالفرد». وهو في علاقة غاية في الحميمية مع الجهاز، يجلس اليه وهو مرتاح في مكانه المفضل وبطريقته الخاصة في الاسترخاء، منفصل عن ألم أو حرارة أو رائحة ما يدور على الشاشة ويراه ويسمعه .. ثم إن فضولية الحاسوب جعلته يدخل في صميم التلفاز، فيعطي نمودجاً مركباً يجمع الى دور التلفاز السلبي في النقل، امكانية للتجاوب مع رغبات المشاهد في التوقيت وفي قدرة هذا المشاهد على الاتصال بمركز البث والتدخل في السرد والحوار.

وللتلفزيون دور تربوي مهم في توحيد أساليب التدريس على مستوى الوطن كله، هذا فضلاً عن كونه أداة تربوية جيدة الأداء تجذب حواس التلميذ المتعددة، وقد غدا وسيلة سمعية بصرية عادية حتى في أبسط المدارس .

إن التطور الذي يصيب الوسائط يجعلها وسائل سفر من الدرجة الأولى، ولا نقصد هنا السفر بوسائل النقل، ولكن سفر القابع في مكانه. «فبالنسبة الى أكثر الناس، ومعظم الوقت يُستشعر تأثير العولمة من خلال البقاء في المنزل، وليس عن طريق الارتحال. هكذا نتحدث عن الفرق بين السفر فعلاً الى أماكن بعيدة وبين السفر اليها عن طريق التحدث عبر الهاتف، أو الكتابة باستخدام لوحة المفاتيح الخاصة بجهاز الكمبيوتر، أو مشاهدة التلفاز»^(١)

إن تفاعلنا الروتيني مع وسائل الاعلام يغيّر عوالمنا الظاهر فيه « فعلى الرغم من أن الكل يحيون حياة محلية، فإن العوالم الظاهرية هي في أكثرها عالمية في الواقع،... ولم يعد العالم الظاهراتي يحاذي الإطار المعتاد الذي يتحرك خلاله أحد الأفراد مادياً إلا في حالات قليلة جداً»^(٢)

والملاحظ أن الظاهرة العالمية تتوغل في صميم شبابنا، فلا يعود يكفيهم المحيط الذي يعيشون فيه، بل هم يرغبون في إقامة علاقات حميمية مع آخرين في بلدان بعيدة، قد يكونون أشخاصاً عاديين، فيحسب الشاب أصدقاءه الذين يحيطون به، وأصدقاءه الذين يزورون موقعه

١- ثورة الانفوميديا ص ٤٤٦-٤٤٧

٢- العولمة والثقافة ص ٢٠٤

على الفاييس بوك أو غيره، وأصدقاءه الذين يتواصل معهم عبر الانترنت، وقد يطمح الى الاتصال بأشخاص مشهورين، ممثلين، سياسيين، مذيعين، مطربين، فيجد الأمر عادياً لأن لهم جميعاً مواقفهم الإلكترونية، ومجموعتهم من الأصدقاء أو المعجبين أو المؤيدين، وتُرفع الكلفة بين الجميع.

إن التغيير المتسارع في الوسائط، ودخولها صميم حياتنا بلا استئذان، تجعل لكل جيل من أبنائنا عالمه، بمفهومه الخاص، بكثير من أنماط السلوك التي لم يعرفها الجيل السابق، والتي قد يخالفها الجيل اللاحق الى انماط خاصة به. يكتب جوشوا ميروفتز: «أن تكون اليوم غير متصل يعني أن تكون شاذاً... وأن يعيش الشخص في مكان لا يوجد فيه هاتف أمر كثيراً ما يفهم على أنه إهانة ضمنية للأصدقاء والأقارب وزملاء العمل، كما انه قد يُنظرُ الى ترك السماع مرفوعة، بعيدة عن الحامل الذي تعلق عليه، على أنه تصرف مزدور للبشر. ويتوقع من العاملين في بعض المهن أن يحملوا أجهزة تنبيه تجعل من الممكن الوصول اليهم في أي وقت، وأينما يكونون ومهما كانوا يفعلون»^(١) ويرسم ماك لوهان هذه الصورة المعبرة:

« يفهم كل من الطفل والمراهق الهاتف، ويعانق السلك وسماعة الأذن كما لو كانا حيوانات أليفة محبوبة...»^(٢)

والحميمية التي كانت مطلوبة عند الحديث الهاتفي لم تعد من نمط هذه الأيام، فحامل الهاتف الخلوي يسير في الشارع متحدثاً بصوت مرتفع وكأنه وحده في غرفة مغلقة. فالاستخدام الشائع للهاتف النقال غدا غير واع، في السيارات في الحافلات، في المطاعم، كما في الشارع، في غرفة النوم كما في الحمام.

لقد حدث تغير ثقافي عدل مفهوم الحميمية المتواسطة، فالحديث مع الآخر، حتى الحميم جداً، يمكن ان يتم بوجود غرباء، دون أي منع أو كبت او حرج.

خامساً: العولمة والثقافة:

«تقع العولمة في القلب من الثقافة الحديثة، وتقع الممارسات الثقافية في القلب من العولمة.. هذا لا يعني أن العولمة هي المحدد الوحيد للتجربة الثقافية الحديثة، ولا أن الثقافة هي، بمفردها، المفتاح المفاهيمي الذي يفكك مغالقات القوة الدينامية الداخلية للعولمة.... إنَّ العمليات التحويلية الهائلة لعصرنا الحديث، والتي تصفها العولمة...تغير نسيج التجربة

١- م.ن.ص ٢١٨

٢- م.ن.ص ٢٢٣

الثقافية وتؤثر ، في الوقت ذاته ، في إحساسنا بالهوية الحقيقية للثقافة في العصر الحديث ...»^(١) هذا التأثير هل هو محمود أو هو مشبوه ؟ إنَّ العولمة هي الأدوات و الوسائط و الأهداف . بالنسبة الى الوسائط يرى الدكتور محمد نابلسي أنَّ الوسيط الأول كان اللغة ، و « أن اللغة دعمت ارتقاء العقل البشري وحققت للذكاء الإنساني قفزة مقررة لأنها مكّنته من تحقيق الاتصال بأقرانه . وبمراجعة تطور وسائل الاتصال نجد أن كلاً منها ساهم في تحقيق زيادة ملحوظة إحصائياً في معدل الذكاء البشري . فمن الطباعة الى الراديو ، فالسينما ، فالتلفزيون ... الخ كانت كل وسيلة من هذه الوسائط تساعد الإنسان على طرح أسئلة جديدة حول معلومات جديدة ، وبالتالي فإنها ساعدته على دعم معدل ذكائه وأسلوب توظيفه لقدراته العقلية . وعليه فإن من الطبيعي أن يقترن ظهور الكمبيوتر والإنترنت بتوقع علماء النفس تحقيق قفزة نوعية هامة للذكاء البشري ...»^(٢)

هذا صحيح ، وأضيف ، مميّزاً بين الإنترنت والكمبيوتر وبين العولمة ، إن الإنترنت وسيلة ، وسيط من الوسائط ، والعولمة هدف وغاية . فالوسيلة يستخدمها الجميع ويفيدون منها ، ومن إمكاناتها الهائلة في عالم المعلومات من تخزين ونقل وبرمجة وتبويب ، وفي التعليم ، وفي الترفيه ، وفي الاقتصاد ، وفي الأعمال ... وكلُّ يضع فيها أو يحملها ما يريد ويأخذ منها ما يريد . عن طريقها يحصل تواصل وتأثير وتأثر . أمّا العولمة الحقيقية فليست كما تبدو في ظاهرها البريء ، ليست مجرد انفتاح عالمي ، كما كان يُؤمّل للجوار العالمي ، إنما هي خطة عمل هادفة ، لها قطب مهيم فاعل يقوم بتسويقها على أنها برنامج تألف وتقارب بين الشعوب والأمم ، ووسيلة رفاه لهم جميعاً ، فيما يهدف منها الى فتح أسواق البلدان وأجوائها الاجتماعية والثقافية والنفسية ، فضلاً عن المالية والاقتصادية ، أمام الشركات والمؤسسات المالية المتعدية الجنسيات ، يُخضع العالم لأهوائها في جني الأرباح وينشر فيه ثقافة الاستهلاك . إن من أهداف العولمة إلغاء الهوية الوطنية للشعوب واجتذابهم الى قومية عقلانية هي قومية الغرب وعقلانيته ، وتنفيرهم من عقلمهم وإقناعهم بقصوره . إن نسخة الغرب العقلانية تقوم على عدم الاعتراف بأية مكتسبات من الماضي عند الشعوب ، فتدعو الى التخلص من جميع المعتقدات والأنظمة السياسية والاجتماعية عندها ...

ونحن لن نناقش آثار العولمة في الثقافة الشاملة ، أي في جميع نواحي التراث الثقافي ، فهذا بحثٌ طويل وقد كتب فيه الكثير . سنكتفي بالإشارة الى ما يمكن للوسائط المتطورة للعولمة إحداثه كنقلة نوعية في بعض ظواهر التراث الثقافي ، مستعينين باقتباس مقولات من باحثين جادين ، ونتناول بصورة خاصة وجهين من التراث الثقافي في المستوى القابل للتغير وهما :

١ - العولمة والثقافة ص ٩

٢ - سيكولوجية السياحة العربية ص ١١٧

التواصل واساليب التعليم ، كما نتناول وجهاً من المستوى القابل للثبات في التراث، وهو اللغة.

١ - التواصل:

لا شك في أن وسائل الاتصال السريع عن طريق الانتقال الجسدي، أو عن طريق النقل الالكتروني للمعلومة، تحقق ما أشار اليه ماركس على أنه إفناء المكان بالزمان^(١) وما دعاه دايفيد هارفي «انضغاط الزمان-المكان»^(٢) فالزمان بات يقضم المكان ويخلخل أبعاده . من الممكن مثلاً القيام برحلة حول العالم في يوم واحد فقط على خطوط الطيران التجارية، فيما كانت الرحلة قبل أقل من خمسين سنة من انجلترا الى أستراليا تأخذ أسبوعاً تقريباً . في العام ١٨٧٠ كان على البريد الأرضي أن يسافر سبعة أيام من لندن الى نيوزيلندا فيما في البريد الالكتروني أو في التواصل عبر الفيديو ، أصبح التواصل فورياً^(٣) إننا نعيش ، لوصدقنا المقارنة المبالغ فيها، في «قرية عالمية» بحسب تعبير مارشال ماك لوهان، وهذا يعني تمديد التقارب الذي يتأتى من شبكة العلاقات الاجتماعية عبر قطاعات كبيرة من الزمان-المكان يجعل الأحداث البعيدة تخترق تجربتنا المحلية ، وهو يعني فهم الكيفية التي يمكن أن يتعرض بها شخص ما للبطالة نتيجة قرارات «تقليص العمالة» التي تتخذ في المقر الرئيس للشركة المالية المقرضة ، والذي يقع في قارة أخرى ... واحساسنا بالانتماء الثقافي « للوجود في وطن » قد يصيبه تعديل خفي بفعل اختراق أجهزة الإعلام المعولمة حياتنا اليومية .^(٤) إن فكرة الانتماء الى وطن وثقافة قد اهتزت مع تزايد انضغاط «المكان» وضعف الاحساس بحدوده، يقول ميروفيتز: « لقد قلل التطور في وسائل الإعلام من أهمية الوجود المادي في تجربة الناس والأحداث ... الآن أصبحت الأماكن المقيدة مادياً أقل أهمية لأنه صار بإمكان المعلومات التدفق عبر الجدران، والاندفاع عبر المسافات الشاسعة»^(٥) إن وسائل الإعلام غدت امتدادات مكانية للحواس البشرية، والدوائر الكهربائية تغلبت، كما يرى ماك لوهان ،على نظام الزمان والمكان، وهي تمطرنا، بشكل مستمر وفوري، باهتمامات ومخاوف جميع البشر ...»^(٥)

إلا أن الوسائط لم تبق على هذا الوضع السلبي، الفرد لم يعد مجرد متلق لـ «مطرة» ثقافية أو معلومة، لقد غدا قادراً على الاختيار، نظراً إلى محيط المعلومات المتعدد الأهواء والثقافات

١ - العولمة والثقافة ص ١١

٢ - جغرافية العولمة ص ١١

٣ - العولمة والثقافة ص ٢٠-٢١

٤ - العولمة والثقافة ص ٢٠٨

٥ - م.ن.

المتوافر على الشبكة^(١)، بل غدا بإمكان أي إنسان، صغيراً كان أو كبيراً، أن يدخل إلى الصفحة الالكترونية لأي رئيس دولة في العالم، ويسجل رأياً في حدث أو موقف، بل غدا الأمر أبعد مع إختراق الواقع الخائلي لجميع الحدود بما فيها حدود الحجم والصلابة والجاذبية، فغدا حفيدي مثلاً قادراً على إستحضار بلاط هارون الرشيد والتجول بين ردهاته، والتصرف فيها كخليفة بجميع الأحاسيس المصاحبة لذلك. فأين عالمي الثقافي من عالم حفيدي؟

هذه الحركة للصور والرموز التكميلية، والتمدد الهائل لطرق التفكير وطرق التواصل، ليس لها مثل في التاريخ... ليس هنالك ما يعادل تاريخياً الامتداد العالمي وحجم الحركة الثقافية من خلال بنيات الإتصالات. انما ذلك إلى أين؟

يرى البعض أن العولمة هذه تقود حتماً إلى التجانس الثقافي، وهنالك من يرى، كما يدعي «بيتراس» (١٩٩٢) أن الثقافة العالمية مرتبطة مباشرة بالولايات المتحدة الأمريكية. ولهذا أهداف سياسية وإقتصادية، وهو جزء من جغرافية الرأسمالية السياسية.^(٢)

٢- التعليم :

ان الولد الذي يصل الى الحاسوب في بيته، أو عند جيرانه، أو في المقهى الالكتروني، لم يعد من المعقول أن يُحصر في فصل، بين جدران عازلة، ويطلب منه البقاء ساكناً لتلقي العلم من مدرس يتحكم به ويملي عليه ارادته. إن الجلوس أمام الحاسوب يمنحه حرية اختيار، ومجالاً من التنوع، وامكانية التنقل الذهني، أو الانفعال امام ألعاب الفيديو، والحماس... إنه حياة حافلة بالنشاط الذهني والحركة.

إن التفاعل مع الصور المرئية، وامكانية التحكم بها تستهوي أولادنا، فالصور المرئية هي بالنسبة اليهم «حلول عقلية» ذات نكهة لا تقاوم. فهم يميلون اليها، ويتمتعون بقدرة «مدهشة على استيعاب الصور، وعلى التفاعل مع المرئي والمسموع، وهذا غداً أمراً معروفاً. والكومبيوترات تهَيّ للطلاب ميادين واسعة، وتمكنهم من الوصول الى المصادر والشخصيات اينما كانوا خارج قاعة الدرس، كما تمكنهم من مشاهدة اشياء متعددة في وقت واحد ومناقشتها، منفردين أو في مجموعات.

«وتتيح الكومبيوترات المتصلة بشبكات، لجميع الأفراد والأسر والطلاب والمدرسين والمسؤولين الاداريين أن يعيدوا النظر في مصطلح «المدرسة» فبدلاً من التفكير في أمر المدارس ستمكّن تلك الأجهزة عملية التعليم من أن تتم خارج الفصل المدرسي. في فصل افتراضي حيث

١- جغرافيات العولمة ص ٢٧٧

٢- ثورة الانفوميديا ص ٤٧٢

يمكن للأطفال أن يتعلموا في منازلهم ، وفي أكوأخهم ، أو أثناء خروجهم في رحلة مع والديهم ، فيظلون في ذلك الوقت كله على اتصال بزملائهم ومدرسيهم في الفصل»^(١)

سوف تصبح كوميبيوترات الوسائط المتعددة الوسيلة الوحيدة الأساسية للتعليم ، فهي تتولى طرح الأسئلة ، وتلقي الإجابات ، وإعطاء التقييم ، وحفظ سجل للتلميذ يظهر حركته ، نشاطه ، تفوقه وتقصيره. وهذه الأمنية كانت منذ أكثر من عشر سنوات، فأين نحن منها اليوم ؟ تجاوزها الواقع.

وهناك سؤال مهم يطرح : ألن تجرّد التكنولوجيا التعليم الرسمي من طابعه الإنساني؟ يُجيب «بيل غايتس» : « إن أي شخص شاهد التلاميذ الصغار وهم يعملون معاً حول الكوميبيوتر ، أو راقب الحوارات التي تدور بين طلاب في حجرات دراسة تفصل بينها المحيطات ، سيدرك أن التكنولوجيا بإمكانها أن تؤمّن بيئة التعليم. والقوى التكنولوجية نفسها ، التي ستجعل التعليم مطلباً ضرورياً سوف تجعله أيضاً شيئاً عملياً وممتعاً».

فضلاً عن ذلك فإن ما لا يستطيعه المعلم من مراعاة الفروق الفردية بين التلاميذ في الصف الواحد ، يتصدى له الكوميبيوتر ، فيرى جاردنر ، الاستاذ بمعهد الدراسات العليا في جامعة هارفرد ، أن الأطفال المختلفين ينبغي تعليمهم بطرق مختلفة لأن الأفراد يفهمون العالم بطريقة مختلفة... بحيث يمكن لكل المتعلمين ، على اختلافهم ، أن يجدوا محتوى التعليم المناسب لهم»^(٢) ذاك أن الكوميبيوترات سوف تدخل تعديلات دقيقة على المادة التعليمية لتتيح للطلاب اتباع مسارات متباينة نوعاً ، والتعلم وفقاً لمعدلات أدائهم الخاصة ...

وسيكون بإمكان الكوميبيوترات تخصيص اهتمام فردي للمتعلمين ، كل منهم على حدة ، كما ستقدم خدمة خاصة للأطفال الذين يعانون من صعوبات تعليمية.^(٣)

وعلى صعيد الاختبارات يتغير مفهوم النجاح والفشل مع الكوميبيوتر. سوف تُتيح الشبكة (والكلام يعود ١٩٩٨) التفاعلية للطلاب أن يمتحنوا أنفسهم في أي وقت، في جوّ خال من أي توتر، حيث يقوم الطالب في استكشاف ذاته ، وتصبح عملية الاختبار جزءاً إيجابياً من عملية التعليم، ولن يستدعي الخطأ تأنيباً وإنما سيحفز النظام الى مساعدة الطالب في التغلب على سوء فهمه^(٤)، وبذا يصبح الاختبار الرسمي مجرد حلقة في آخر السلسلة ، خالياً من المفاجآت. فوداعاً للتسرب المدرسي .

١- المعلوماتية بعد الانترنت ص ٢٩٩

٢- م.ن.ص ٣٠٠

٣- م.ن.

٤- م.ن.ص ٣١٦-٣١٧

٣- اللغة

ننقل عن «كريستال» (١٩٩٧) «هناك ستة آلاف لغة تقريباً في العالم، وقد يهبط العدد الى ثلاثة آلاف في العام ٢١٠٠، نحو ستين في المئة من هذه اللغات لها أقل من ١٠ آلاف ناطق، والرابع لها أقل من ألف ناطق .

أصبحت الانجليزية لغة العالم ... والانجليزية وسيلة للتواصل في مجالات مهمة متعددة كالسفر جواً، والمالية، والانترنت. ثلثا العلماء يكتبون بالانجليزية، و ٨٠٪ من المعلومات المخزنة في أنظمة الاسترجاع الالكترونية هي بالانكليزية، وفي أي وقت يدرس أكثر من ٢٠٠ مليون طالب الانجليزية لغة إضافية. وهي لغة رسمية في دول من إفريقيا والمحيط الهادئ وجنوب آسيا. وجنوب شرق آسيا. قد تدعي هذه الهيمنة بـ «الإمبريالية الثقافية الإنجليزية» وتفسر الدور المهيمن الحالي للولايات المتحدة الأميركية.^(١)

يذكر محمود أمين العالم في كتابه «دفاع عن الخصوصية اللغوية» أنّ «العولمة السائدة أخذت تفضي بالضرورة الى سيادة لغة من لغات الدول المهيمنة في العلاقات التجارية والاقتصادية وما يستتبع ذلك من سيادة ثقافتها وقيمها الخاصة ... إن المعنى هو تهميش اللغات والثقافات القومية واحتواؤها، واستتباعها كمقدمة ومدخل لاستتباعها اقتصادياً وثقافياً»^(٢)

ومع الانترنت انفتح «الفيضان أمام تدفق معلوماتي هادر تطفى عليه اللغة الانكليزية، وهو ما أثار الفزع لدى جميع الأمم غير الناطقة بالانكليزية، ولغتها توشك أن تسحق أمام الاغصان الجارف، تحت ضغوط اقتصادية وسياسية وثقافية هائلة»^(٣)

ويضيف الدكتور نبيل علي أن القوى الاقتصادية الأميركية أدركت الأهمية البالغة لموارد المعلومات، يثبت ذلك ما شهدته الساحة الأميركية من تقدم هائل في علوم اللسانيات وهندسة اللغة، والهدف: جعل شيوع اللغة الانكليزية رأس الحربة في تنفيذ مخطتها لسيادة العالم معلوماتياً وثقافياً واقتصادياً. وهكذا تستعيد الولايات المتحدة حلمها الذي كادت تفقده، بأن يصبح القرن الحالي، هو الآخر، قرناً أمريكياً، يكون فيه للرمز واللغة سلطة تفوق جميع السلطات. والولايات المتحدة تمارس حالياً من خلال مؤسساتها الاعلامية والاقتصادية والتكنولوجية أساليب متنوعة ومبتكرة من الضغط، لا ترحم أحداً، لا عدواً ولا حليفاً، ولا كبيراً ولا صغيراً.

هذا هو الوجه القائم، وهو مشترك بين جميع لغات العالم، غير الانكليزية المحكوم عليها

١- جغرافيات العولمة ص ٢٨٢

٢- الثقافة العربية وعصر المعلومات ص ٢٢٢

٣- م.ن. ص ٢٢٣

بالتبعية أو التلاشي. فما وضع العربية ؟

لا شك في أنَّ تقصير العرب في أمر لغتهم مساعد قوي للاجتياح العولمي. فالكثيرون يتحدثون عن أزمة تعليم اللغة العربية : أزمة الاساليب التعليمية ، أزمة المناهج ، أزمة محتوى المادة المعلمة ، أزمة المدارس الخ... وقد تناول الدكتور نبيل علي الموضوع بإسهاب ومن جميع جوانبه في كتابه القيم «الثقافة العربية وعصر المعلومات»

ومن آرائه أنَّ برامجنا الثقافية اهتمت بصورة كافية بتذوق مآثر اللغة ومظاهر عبقريتها وصلة ذلك بإعجاز البيان القرآني، وأن الثقافة اللغوية في عصر المعلومات تتطلب أكثر من ذلك بكثير . ويذكر بعض الحاجات ، منها : كيفية توظيف اللغة في حياتنا اليومية ، تحديد موقع العربية على خريطة اللغات العالمية ، والتوعية بنظم تعلم العربية آلياً...

كما يذكر مساهمات علماء اللسانيات حالياً في دفع التطوير اللغوي باتجاه آفاق جديدة. ويورد عناوين نماذج نحوية عدّة ظهرت نتيجة التفاعل بين النحويين والدلالين، وبين اللغويين وعلماء الكمبيوتر، منها: نحوُ الحالات الإعرابية ، نحوُ وظيفي، نحوُ وظيفي معجمي، نحوُ ترابطي، نحوُ البنية العامة للجملة ، والصرف والنحو الحاسوبيان ، الدلالة الحاسوبية ، المعجمية الحاسوبية....^(١)

الموضوع واسع ومتشعب ، لن نخوض فيه أكثر . انما السؤال هو الى أي حد يبلغ خطر التهديد المحيق بالعربية؟ هل لغتنا مهددة بالانقراض ؟ ماذا يعني قرار منظمة التجارة العالمية بعدم ادراج اللغة العربية في جدول لغاتها الرسمية؟ هل نكتفي باسترجاع الآية الكريمة : «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» ونستريح ؟ (٢) هل نستسلم ، مع المتشائمين العرب الذين يوافقون الامبريالية حول قصور اللغة العربية وجمودها ، وعجزها عن مواكبة التطور العلمي؟ أليست كل عيوب اللغة وأمراضها هي عيوب العرب المتكلمين بها والباحثين ، لا عيوبها ؟ يكفي أن نذكر أن اللغة العربية قدرتين : القدرة على إبداع الجديد من الكلمات ، أو حتى من الدلالات نظراً لما تتمتع به العربية من قابلية للاشتقاق واستخدام المجاز ، وهي من القدرات النادرة في لغات العالم ، والقدرة الثانية امكانية الاستيعاب اللغوي والفكري الذي أثبتته اللغة لنفسها إبان عصر الترجمة العباسي، فقد كانت لا تزال قريبة من البداوة حين تصدت للتراث العلمي العالمي في ذلك الوقت، تلقفته، وتضمنته، وطوّرتّه، ولَبّت جميع حالات التعبير فيه، فلسفياً وعلمياً. كل ذلك

١- م.ن ص ٢٥٧-٢٦٧

٢- م.ن ص ٢٧٥

دخل اللغة وأغناها، إنما لم يؤثر في جوهرها ، فبقيت عربية الأدب وعربية الفقه، وعاش الى جانبها الفلسفة والعلوم . واليوم لوتفتح العربية على كل جديد في الدنيا، فإن قابلية الاشتقاق، مع ما طرأ من علوم لسانية جديدة تستطيع أن تغطي دلالاته التعبيرية والعلمية، ولا خوف على جوهر العربية ، فهو يستضيف الجديد ولا يذوب فيه.

الخاتمة : هل نحن معولمون ؟

طبعاً ، نحن في صميم العولمة ، نحن في بلد نام من العالم الثالث ، بل مقترض خاضع لتحكم المؤسسات والشركات العابرة للقوميات ، مجبر على تنفيذ شروطها مهما حاول المقاومة والتسويق.

لقد غزتنا الحداثة ، دخلت حياتنا وعشنا غمراتها . فهي تجلت وستجلى في السلوك والتصرف والأفكار والأدب ، وفي كل مجال، ويتهم بعض النقاد دعاة التجديد بأنهم دعاة تقليد للغرب ، وبأنهم عملاء اختارتهم « رابطة الحرية والثقافة » التابعة للمخابرات الأميركية ، فغدتهم ودعمتهم ليخدموا توجهاتها ويكون لهم دور الريادة لأنها اختارتهم من « النخبة ». وتهمة العمالة قريبة الى لساننا ، نقدف بها المتجرئين على مخالفة الموروث . وسواء كان بعض النخبة عملاء ، أو كانوا مجرد متمردين ، فمما لا شك فيه أن الحداثة لم تأتأ عن طريق تطور طبيعي لحياتنا الاجتماعية والفكرية والعلمية ، كما حدث في الغرب، إنما جاءتنا بالتقليد، بالاقتباس، بالطفرة المفاجئة، لهذا كانت غير مألوفة ، لم تنتهياً ظروفنا النفسية والاجتماعية لتقبلها، أما التألف معها فعدا عملاً لاحقاً لتطبيقنا لها، وهذا سبب التناثر والتصادم بين الحداثي والتقليدي.

إنما العولمة لا تعني الحداثة وبكل بساطة. فإذا كانت الحداثة نقلة في أسلوب التصرف والتعلم والتفكير، والتعبير الأدبي وسوى ذلك فإن الانتماء إليها أو اقتباسها يبدو اختيارياً ، لذا يعيش الحداثيون الى جانب التقليديين، يتضادون ويتجادلون ويتصارعون ، وقد يتفقون، إنما العولمة ليست كذلك ، إنها خطة طريق مرسومة ، تستخدم أدوات الحداثة والتطور في وسائل الاتصال، وتعمل على ضغط إرادة الشعوب والسيطرة على الدول لتوجيهها نحو الوحدة الاقتصادية العولمية الافتراضية، مدعية أن حاجات العالم ورغباته غدت متجانسة بصورة لا رجعة عنها، وأن تطور التكنولوجيا يقود الناس، ولو غصباً في اتجاه تلك الوحدة التي تؤمن لهم زيادة في الراحة، وتخفيفاً من أعباء الحياة . إنها نَقْلَةٌ نوعية في تنظيم الاقتصاد الرأسمالي، باعتباره نظاماً وحيداً للعالم، وملزماً، والزامه لا يأتي من إرادة المواطنين في بلد ما وإنما من الضغط على حكومات الأوطان، ضغطاً مالية واقتصادية وسياسية ، وحتى قانونية لتفتح أسواقها للتبادل العالمي .

وإذا كانت العولمة تدخل البلد عن طريق قوتها التأسيسية ضمن نظام الدولة ، فإنها بلا شك، تأتي بالجديد وبالمدهش الذي يستحوذ على عقول الأجيال الناشئة ، وبها يكون تسرُّبه ،

تسرباً لا يستأذن ولا يدق الأبواب . فإذا كانت هذه الأجيال تسعى الى العولمة لأنها تغذي طموحها ، أو لأنها تريحتها ، أو تُسَعِّدها ، أو لأنها تنقذها مما يتعبها ويقسرها أو يربكها في التراث ، فهذا يعني أن التراث والقيَمين عليه غافلون ، وعليهم ان يتوقفوا ويتلفوا ويدرسوا ويتفحصوا ، بدل ان يحتجوا ويشتموا ويتهَمُّوا ، وينعوا على العولمة وعلى الاستعمار وعلى أميركا تدخلها وأطماعها . طبعاً لهذه الدول مصلحة الغازي والمستعمر ، انما علينا استباق أهدافه ، واستباق الجاذب لأولادنا في العولمة . علينا تعديل الظواهر التراثية القابلة للتغيير والتطور في محاولة لجعل الموجة تتوقف أو تأتلف مع التعديل ، فلا تتجاوزها الى النواحي الثابتة والجزهرية في التراث . كما يتوجب علينا توظيف ماتقدمه العولمة والذي يستهوي أجيالنا ، في خطة تربية هذه الاجيال وتعليمها . بذا نفوّت الفرصة على صانعي العولمة في وجه من وجوه خطة طريقهم ، وهو الغاء الهوية الوطنية .

د- تذييل

تعريفات

التقليص : خفض في المصاريف العمومية (مثلاً في التعليم والصحة والبنية التحتية العمومية) وفي الضرائب ، للرفع من الحوافز للمقاولة والاستثمار الخصوصي ، أو للخفض من العجز في الميزانية .

الخصخصة : بيع مقاولات الدولة ، وجعل الوظائف الحكومية (حيثما يكون ذلك ممكناً) ، قطاعاً خاصاً ، لتحرير دافع الربح المحفّز على الفعالية ، ولتقليص مصاريف السوق الحكومية (يشملّ عمليات الدعم والضمان) .

التحرير : تقليص تدخّل الدولة في الاقتصاد ، مثل السياسة الإقليمية ، أو قطاع الدعم ، وهذا يسمح للسوق بأن تحدّ الدرجة المثلى الطبيعية (للتوازن الطبيعي بحسب العرض والطلب) . وكذلك تقليص الروتين الذي يتطلبه انشاء المقاولة الخاصة .

العولمة : تقليص الرسوم الجمركية ، وكل الاجراءات الحمائية ، بهدف فتح الحدود ، أمام الاستثمار في الداخل من قبل الشركات العابرة للقوميات ، ولتسهيل نقل التكنولوجيا ، والحث على المنافسة مع منتجي العالم ، ولتحقيق اقتصاديات قياسية من الأسواق ذات الحجم الكبير لتعزيز الفعالية والصادرات . ويُعدّ تخفيض العملة المحلية لتحفيزها (أي الصادرات) ميزة إضافية في أحوال كثيرة .